الإعْجازُ اللَّوْنيُّ في القُرآنِ الكريمِ

((حقيقته وأدلته وآثاره))

سماحة الشيخ الدكتور طلال الحسن
قم - ايران الاسلامية

فحوى البحث

يتناول البحث الإعجاز اللوني في القرآن الكريم حيث يبسط فضيلة الباحث أسس المسألة وجملة من فروعها، اذ اشتمل على عدة بحوث تمهيدية حول موضوعها وبيان متعلقات الإعجاز التصوُّرية.. بعد ذلك يأتي بحث الدليل على مسألة البحث والذي عُرض بصورة فنية اعتمدت بيان أركان الإعجاز اللوني في القرآن ثم الشروع بِسَوْق الأدلة على مستويين:-

- مستوى الآيات اللونية.
- مستوى آيات الاختلاف اللوني في القرآن الكريم بعد ذلك يعرض الباحث الآثار التفسيرية والمعرفية العَقَديَّة، والتربوية النفسية للإعجاز اللوني في القرآن الكريم.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين وأشرف خلقه أجمعين أبي القاسم محمد النبي الخاتم الأمين وآله الطيبين الطاهرين.

لا ريب في ثبوت الإعجاز القرآني، وإنما الكلام في مساحته وتطبيقاته، وقد أسهم الإعجاز العلمي في توسيع دائرة الإعجاز القرآني والسير باتجاه تحقيق أهدافه الخاصة بالهداية والجوانب المعرفية؛ ويُعتبر الإعجاز اللوني في القرآن الكريم مفردة من مفردات الإعجاز العلمي الذي يمثل هو بدوره محطة مهمة من محطات الإعجاز المختلفة كمّاً ونوعاً.

المبحث الأول:

معنى الإعجاز واللون لغة واصطلاحاً

الإعجاز لغة: العجز نقيض الحزم[1]؛ وأما الإعجاز فمعناه الفوت والسبق، يقال: أعجزني فلان أي فاتني، قال الليث: أعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه، والمعجزة بفتح الجيم وكسرها، مفعلة من العجز: أي: عدم القدرة[2].

الإعجاز اصطلاحاً: لقد عُرِّف المعجز من خلال رؤيتين، كلامية وفلسفية، وقد استقى المفسِّرون من ذلك ما ينسجم مع مُتبنياتهم، فكل تعريف للإعجاز والمُعجز مردَّه إلى ذلك؛ ومن مجموع ما ورد يمكن القول بأنَّ الإعجاز أو المعجز يُشترط فيه ما يلي:

١. أن يكون أمراً بيِّناً، لاغامضاً ولا مُبهماً.
٢. أن يكون مقروناً وموافقاً لدعوى إلهية كُبرى، من قبيل النبوة والإمامة.
٣. أن يعجز الآخرون عن الإتيان بمثله أو بمُعارض له على امتداد الزمن، سواء كان المُعجز خارقاً لنواميس الطبيعة أم لا.
٤. أن يكون دليلَ صدقٍ على مُدَّعاه دون الانحصار بذلك، شرط ن يكون الثاني مُنتمياً للأول، كما لو استند النبي المُرسل الى إعجازه في إثبات أمر آخر غير نبوته بعد التصديق به.

(١) انظر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد، (كتاب العين)، تحقيق الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، مادة (ع ج ز).

(٢) انظر: ابن منظور، (لسان العرب)، مادة- ع ج ز -.

٥. أن يكون قابلاً للتحدي به عند تكذيبه، وإلا فمع التصديق به لامعنى للتحدي به.

بهذه الأُمور يكون المُعجز مُعجِزاً إلهياً لا بدَّ من القبول به، ولا يصحّ تكذيبه.

اللون لغةً: قال ابن سيده: (لون كل شيء فاصل بينه وبين غيره، الجمع ألوان، وقد تلوَّن ولوَّنته...)[٣]، وقد ذكر الجوهري للون عدة معانٍ، حيث يقول: (اللون هو هيئة كالسواد والحمرة. ولونته فتلوَّن. واللون: النوع. وفلان متلوِّن، إذا كان لا يثبت على خلق واحد؛ ولُوِّن البسر تلويناً، إذا بدا فيه أثر النضج. واللون: الدقل، وهو ضرب من النخل)[٤].

اللون اصطلاحاً: قيل هو: (ذرات أو موجات ضوئية طُليت بأمواج خاصّة من الأصباغ التي لا تُحصى، وكل لون فيها يحمل معنى خفياً ودلالة عجيبة)[٥]، أو هو: (نسبة الطيف المرئي المنعكس في المادة)[٦]، فرؤيتنا للأشياء متوقّفة تماماً على النسبة الضوئية التي تعكس تلك الأشياء، أي: إنّ الأشياء المرئية لنا هي التي تقوم بدور الإراءة، فهي التي تُري نفسها، وعندما تُري نفسها تظهر بلون الأشعة الساقطة عليها و المنعكسة منها؛ فاللون هو نوع تأثير فسيولوجي ناتج عن سقوط الضوء المنعكس من الأشياء على شبكة العين؛ فليست هنالك أشياء بيض وأُخرى حمر... إلخ، وإنّما توصف الأشياء بالألوان تبعاً للأشعة والحزم الضوئية الساقطة عليها والمنعكسة منها، فاللون أمر انعكاسي لا صلة له بواقعية الأشياء، أو هو ما تعكسه الأشياء من أشعة ضوئية ساقطة عليها لا غير.

وقد ذهب البعض إلى أنَّ اللون هو

(٣) انظر: ابن سيده، (المخصّص «معجم معاني»)، مطبعة بولاق، مصر: ج١ ص١٠٧.

(٤) انظر: الجوهري، (الصحاح)، تحقيق أحمد بن عبد الغفور عطار، نشر دار العلم للملايين، ١٤٠٧ هـ، بيروت، الطبعة الرابعة: ج٦ ص٢١٩٧.

(٥) انظر: حمدان، نذير، (الضوء واللون في القرآن الكريم «الإعجاز الضوئي -اللوني»)، نشر دار ابن كثير، ١٤٢٢هـ، الطبعة الأُولى، بيروت: ص٢٩.

(٦) انظر: (دراسة في شرح موجز لبرنامج الفوتوشوب -القسم الأول)، منشور في: الموقع التخصصي في رياضيات الثانوية العامة، http:// www. alyeldeen. com/vb/)؛ وأيضاً في: موقع المعمار السوري.

ذلك التأثير الفيزيولوجي الناتج على شبكية العين، سواء كان ناتجاً عن المادة الصباغية الملونة أم عن الضوء الملون، فهو إحساس لا وجود له خارج الجهاز العصبي للكائنات الحية[٧].

هذا بحسب المعطيات العلمية التجريبية التحليلية؛ وأما علماء الطبيعية فيرون أنَّ اللون حاصل نتيجة تحليل الضوء (الطيف الشمسي) أو طول موجة الضوء، وفي الحقيقة يوجد كل من المادة الملونة، أي: المادة الصباغية، وكذا الشعاع الملون، أي: الضوء الملون؛ وقد حدد علماء الطبيعة اللونَ بالدلالات الطبيعية الثلاثة الآتية: (طول الموجة، النقاء، عامل النصوع).

مناقشة الاصطلاح العلمي للون

إنَّ حقيقة اللون في المنظور العلمي التجريبي تتشكَّل من حزمة ضوء ساقط على جسم ما، فالأجسام تكتسب ألوانها من طبيعة وخواص الحُزم الضوئية الساقطة عليها؛ إلا أنَّ الأمر يبدو لنا مخالفاً للوجدان، فالزهور الملونة -مثلاً- لا تتباين لنا ألوانها بحسب الأشعة الساقطة عليها، فالوردة الحمراء تحتفظ بلونها ليلاً ونهاراً، وتفترق عن الوردة البيضاء، ولو وضعناهما لساعات طويلة تحت أشعة الشمس المختلفة نوعاً ودرجةً سوف لن يتغيَّر شيء؛ فهنالك أشعة ضوئية ساقطة على الأجسام والتي بها تتحقَّق رؤية الأجسام، لا أنها تُؤسِّس لكل الألوان.

توضيح ذلك: هنالك ألوان ثابتة وألوان متغيِّرة، أما الثابتة فهي ما عليها نفس الأجسام، والتي تنطبق على مثال الزهور، وأما المتغيِّرة فهي العائدة للحزم الضوئية، من قبيل الأجسام الزجاجية التي تُسلَّط عليها الألوان المختلفة، فالزجاجة البيضاء تكتسب لوناً جديداً من خلال اللون المنعكس فيها بواسطة الحزم الضوئية، فلو سلطنا عليها حزمة ضوء حمراء سوف يتجلَّى لنا اللون الأحمر فيها، ولو سلَّطنا عليها حزمة ضوء صفراء تتغيَّر بحسب ذلك، وهكذا.

تقسيمات اللون: تقسم الألوان إلى

(٧) انظر: عبد العزيز، الدكتور أشرف فتحي مقالة: (الألـوان في القرآن رؤية فنية ومدلول... مدخل إدراكي لجماليات العلوم الإنسانية والتطبيقية «دراسة موازنة»)، موقع الكاتب: ashrafaziz7@yahoo. com.

ثلاث دوائر، وهي: دائرة الألوان الأساسية (الأولية)؛ وهي الأحمر والأصفر والأزرق؛ ودائرة الألوان الثانوية؛ هي البرتقالي والبنفسجي والأخضر؛ ودائرة الألوان الثلاثية (المشتقة)؛ هي الألوان التي تقع بين الألوان الأساسية والثانوية[٨].

العلاقة بين الضوء واللون

لا ريب في ان الضوء وسيلة حسية حقيقية تُمكننا من رؤية الأشياء، وبالتالي فنحن لا نستطيع معرفة الأشياء الملونة إلا بواسطة الضوء الساقط عليها والذي ينعكس جزء منه على عيوننا؛ فكل عيِّنةٍ حسِّيةٍ ملونة إذا ما سُلط عليها ضوء تكون مرئية؛ وإلا يستوي وجودها من عدمها من حيث الرؤية لا من حيث الوجود؛ ومنه يتضح أنَّ الأشياء الحسية التي تُسلَّط عليها الأضواء تزداد ظهوراً ونصوعاً بازدياد حزم الضوء المسلطة، والعكس بالعكس؛ فالضوء يُؤثر كثيراً على ظهور الدرجة اللونية للأشياء؛ فرؤية الأشياء في النهار تختلف عن رؤيتها في الليل؛ ورؤيتها في الضوء الشديد غير رؤيتها في الضوء الخافت؛ وهي مع ذلك كلّه مُحتفظة بلونها الأصلي، فالأحمر أحمر في الضوء الشديد وفي الضوء الخافت معاً؛ وهكذا بقية الأشياء، وما يُضيفه الضوء من امتياز لا في وجودية الدرجة اللونية وإنما في درجة ظهورها؛ وأما ما يُقال من عدم تمييز العين للألوان في الظلام فصحيح جداً ولا غبار عليه؛ ولكنه لا صلة له بلونية الأشياء؛ فما قيل لا يُؤسِّس لضوئية الألوان بقدر ما هو يُؤسِّس لمظهرية الألوان بواسطة الضوء، والفرق بعيد جداً بين الإيجاد والإظهار.

المبحث الثاني:

أهمية الإعجاز القرآني وأنواعه.

للإعجاز والمعجز والمعجزة أهمية كبرى في مسيرة الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، أو قل في مسيرة رسالات السماء، بل وفي مسيرة الإنسان أيضاً، وهذا السير العقلائي في الركون للمعجز في استقطاب الآخرين مضى عليه جميع أصحاب الدعاوى الكبرى، حيث أجهدوا أنفسهم

(٨) انظر Johannes Itten، "The Art of Color" 1961. Trans. Ernst Van Haagen. New York :Reinhold Publishing Corporation، 1966. ISBN 0 442 -24038 -4

بتقديم شيء استثنائي يُميِّزهم عمَّن سواهم، سواء كان الأمر يتعلَّق بالجانب الروحي أم المادي، وما أصحاب النظريات الوضعية -في النظم الدولية والاجتماعية الخاصة بسياسة البلدان -ببعيدين عن ذلك، فهم أيضاً قد بالغوا في إظهار أنفسهم بعنوان المُخلِّص للبشرية، وإن لم يُصرِّحوا بذلك، إلا أنهم نحو هذا المنحى في الجذب والاستقطاب كبروياً، رغم فتور مدَّعياتهم صغروياً؛ ممَّا يُعزِّز فكرة أهمية المعجز في حركة الشعوب؛ ولا ريب بأنَّ الإعجاز القرآني يدخل ضمن هذا السير العقلائي في جذب مخاطبيه، إلا أنه له امتيازه الاستثنائي الكامن في أمرين، هما:

١. أبديته وخلوده، فلم يُكتب ذلك لغير القرآن أبداً، سواء في الأُمور التكوينية أم التدوينية.

٢. إنه لم يُمثل هوية القرآن بقدر ما هو امتياز له، بمعنى أنَّ القرآن الكريم في قيمته المعرفية والهدايتية أكبر وأعظم من دوره الإعجازي الكامن فيه، وما إعجازه المتنوّع إلا حلقة مهمة من حلقاته، وليست الأهمّ، أو قل بأنَّ إعجازه وسائلي أكثر مما هو هدفي، رغم التزامنا بالحركة النوعية للقرآن على كافة مستوياته، الظاهرية، التي ينتمي الإعجاز إليها، والباطنية، التي تنتهي جميع المعارف الإلهية إليها؛ فالسلوك النوعي هو دأب الصناعة النصّية للقرآن الكريم.

أنواع الإعجاز القرآني

للإعجاز القرآني أنواع كثيرة ذكرها الأعلام[٩]، يمكن إيجازها بما يلي:

النوع الأول: اشتماله على المعارف الإلهية العالية والحقائق الحكمية.

النوع الثاني: اشتماله على نُظم العلاقات الفردية والاجتماعية ومقياس التفاضل.

النوع الثالث: اشتماله على أصول التربية والأخلاق.

النوع الرابع: الفصاحة والبلاغة.

النوع الخامس: إخباره بالمغيَّبات.

(٩) انظر: الباقلاني، (إعجاز القرآن)، تحقيق السيد أحمد صقر نشر دار المعارف، مصر، القاهرة، الطبعة الثالثة: ص٣٣ فما بعد. وأيضاً: الزركشي، (البرهان في علوم القرآن)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى: ١٣٧٦ هـ، القاهرة، ج٢ ص٩٢ ومابعدها.

النوع السادس: خلوّه من الاختلاف والتناقض.

النوع السابع: تفوّقه الاستثنائي على ثقافة عصره وفكره ومعطياته

النوع الثامن: اشتماله على حقائق علمية، وهو ما أُصطلح عليه بالإعجاز العلمي.

المبحث الثالث:

المراد من الإعجاز العلمي

الإعجاز العلمي للقرآن الكريم- وفقاً لاصطلاح الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة -هو: إخبار القرآن الكريم بحقيقة أثبتها العلم التجريبي وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول ﷺ ممَّا يظهر صدقه فيما أخبر به عن ربه سبحانه وتعالى[10]؛ أو هو: ما يُقصد به سبقه بالإشارة إلى عدد من حقائق الكون وظواهره التي لم تتمكَّن العلوم المكتسبة من الوصول إلى فهم شيء منها إلا بعد قرون متطاولة من تنزّل القرآن[11]؛ أو هو: انطباق القرآن مع العلوم التجريبية[12]، بحيث تُثبت إعجازاً جديداً للقرآن؛ وقد وصف الإعجاز العلمي بأنه علمي نسبة إلى العلم، والعلم: هو إدراك الأشياء على حقائقها أو هو صفة ينكشف بها المطلوب انكشافاً تاماً[13]، والمقصود بالعلم في المقام هو خصوص العلم التجريبي؛ وقد وردت تعريفات أُخرى للإعجاز العلمي لا تخرج عن فحوى ما تقدَّم.

جدير بالذكر أنَّه لم يلقَ التفسير العلمي والقول بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة الشريفة إجماعاً من قبل

(١٠) الشحود، علي بن نايف، باحث في القرآن والسنة، (موسوعة البحوث والمقالات العلمية)، إعداد المؤلف. منشورة في المكتبة الشاملة.

(١١) انظر: مقالة: (الإعجاز العلمي للقرآن الكريم)، للدكتور زغلول النجار. منشورة في موقعه.

(١٢) انظر: رضائي أصفهاني، للدكتور محمد علي، (پژوهشى در إعجاز علمي قرآن)، تحقيق في الإعجاز العلمي في القرآن، انتشارات پژوهشى هاي تفسير وعلوم قرآن، ١٣٨٦ش، قم المقدسة، الطبعة الثانية: ج١ ص١٨.

(١٣) انظر: الشوكاني، (إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول)، تحقيق أحمد عزو عناية، تقديم: دار الكتاب العربي، ١٩٩٩م، دمشق، الطبعة الأولى: ج١ ص٢١.

مُفسِّري القرآن الكريم والمهتمِّين بعلومه، حيث وقع خلاف شديد في ذلك، بين مُؤيِّد ومانع ومُتوقِّف؛ أما المجيزون فهم كُثر، منهم:

١. الشيخ محمد عبده.
٢. الشيخ محمد رشيد رضا.
٣. الشيخ عبد الحميد بن باديس.
٤. الشيخ محمد أبو زهرة.
٥. المحدث المغربي أبو الفيض أحمد بن صديق الغماري.
٦. الشيخ محمد الأمين الشنقيطي.
٧. محمد الطاهر بن عاشور.

وأما المانعون من التفسير العلمي فأبرزهم من المتقدمين أبو إسحاق الشاطبي، ومن المعاصرين شيخ الأزهر الأسبق الشيخ محمود شلتوت والأستاذ سيد قطب، والدكتور محمد حسين الذهبي، فضلاً عن جملة من أعلام السلفية الذين اعتبروا التفسير العلمي للقرآن بدعة أو ضرباً من التفسير بالرأي، أو أنه نتاج بشري اعتمد نظريات بشرية لا تصلح أن تكون مُفسِّرة للقرآن الكريم[١٤].

ضوابط اعتماد النظريات العلمية التجريبية في التفسير

ذكرت للعمل بالنظريات العلمية التجريبية في تفسير لقرآن عدة شروط وقيود، منها:

١. ضرورة مراعاة معاني المفردات القرآنية المطابقة للغة إبان نزول الوحي.
٢. وجود دلالة في النصّ القرآني على الحقيقة الكونية المراد إثبات إعجاز علمي بصددها.
٣. الابتعاد عن التأويل في بيان إعجاز القرآن العلمي.
٤. عدم جعل حقائق القرآن موضع نظر، بل لابدَّ أن تكون هي الأصل، فما عارضها رُفض.
٥. أن لا يتقاطع التفسير العلمي مع السنة القطعية المفسِّرة للقرآن الكريم.
٦. أن يُصاحب التفسير العلمي مؤيِّدات عقلية أو نقلية لتورث اليقين بتفسير العلم التجريبي.

(١٤) انظر المواقع الرسمية لكل من الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ محمد بن صالح العثيمين، والشيخ صالح بن فوزان الفوزان، والشيخ سعد بن عبد الرحمن الحصين، والشيخ عمر بازمول، وغيرهم.

٧. أن لا يفسر القرآن الكريم إلا باليقين الثابت من العلم التجريبي[١٥].

المبحث الرابع:
المراد من الإعجاز اللوني

المراد من الإعجاز اللوني في القرآن هو إثبات حقيقية قرآنية تتعلَّق بالألوان تحديداً، كشف عنها العلم مُؤخَّراً، ولم تسبق إلإشارة إليها من غيره قبل نزول القرآن الكريم.

وهذه الحقيقية القرآنية يُمكن عرضها من عدة وجوه، وهي:

الوجه الأول: الإعجاز اللوني على مستوى اختلاف الألوان

وهو أن يكون المراد الاختلاف في قوله تعالى: ﴿مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَا﴾ [سورة فاطر: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡ﴾ [سورة الروم: ٢٢]، هو اختلاف ألوانها تحديداً لا أنواعها أو أجناسها، بالتالي يتعيّن أن يكون كل إنسان وحيوان ونبات له لونه الخاص به والذي يُميّزه عن أفراد نوعه.

الوجه الثاني: الإعجاز اللوني على مستوى المراتب

لو أخذنا عينة الإنسان، وافترضنا جدلا أنّ المراد من اللونية فيه ما هو مشهور من انقسامه على أبيض وأسمر وأسود، كما هو الحال في الإنسان الأوربي والأسيوي والأفريقي، فإنَّ هذا الفرض لا يلغي كون كل فرد من أفراد الإنسان له لونه الخاص به لما نراه حسّاً من الأبيضية–مثلاً –حيث لا تكون بمرتبة واحدة، فالأوربيون ليسوا على درجة لونية واحدة، فهم كما يختلفون عن الأفارقة لونيّاً فإنهم يختلفون فيما بينهم كذلك؛ وعليه يكون الإعجاز اللوني متحقّقاً حيث الكشف عن الاختلاف اللوني الذي لا حصر له.

الوجه الثالث: الإعجاز اللوني في أثر اللون

علاقة الإعجاز اللوني بالإعجاز العلمي

يُعتبر الإعجاز اللوني قسماً من أقسام الإعجاز العلمي، فالإعجاز اللوني كشف علمي خالص يتعلَّق بحقيقة الألوان

(١٥) انظر: پژوهشى در إعجاز علمي قرآن، مصدر سابق: ج١ ص١٨. وأيضاً: رضائي أصفهاني، للدكتور محمد علي، (در آمدي بر تفسير علمي قرآن)، انتشارات أُسوة، قم المقدسة: ص ١٨٥ –٢٠٥.

ومراتبيتها وطبيعة اختلافها وآثارها، وكيفية استفادة القرآن الكريم من هذه الحقيقية المراتبية؛ وبما أنَّ هذا المنجز منجز علمي من حيث الكشف عن هذه الحقيقية، وأنَّ القرآن الكريم أول من استفاد من هذه الحقيقية بوجوهها المختلفة، فإنَّ ذلك المنجز منجز علمي؛ فإنّ المعاني الدقيقة للألوان إنما لوحظت في مراحل مُتأخرة جداً عن نزول القرآن الكريم، فيكون الكشف عن مضامينها مؤخراً دليلاً على إعجاز قرآني جديد، وهو ما يُسمَّى بالإعجاز اللوني، وبالتالي فإنَّ الإعجاز اللوني يُشكِّل مفردة جديدة من مفردات الإعجاز العلمي.

المبحث الرابع: أركان الإعجاز اللوني في القرآن الكريم

الركن الأول: الاختلاف اللوني بين الموجودات الطبيعية

تعرّض القرآن الكريم للون الأبيض وللألوان التي يتكوّن منها اللون الأبيض وهي: (الأحمر والأصفر والأزرق)، وبمعية اللون الأخضر يكون القرآن الكريم قد أجملَ الألوان غير المتناهية بهذه الألوان الأربعة، وأجملَ الأربعة باللون الأساسي وهو اللون الأبيض، وأما الألوان الأخرى المُكمِّلة للسبعة فهي: البرتقالي والبنفسجي والنيلي[١٦]؛ وعليه فلابدَّ أن يكون الاختلاف اللوني المأخوذ على نحو الموجبة الكلية كامناً أو محفوظاً في الاختلاف المراتبي، بمعنى أن تكون لكل عيِّنة وجودية طبيعية مادية مرئية مرتبتها اللونية الخاصَّة بها، فلا تماثلها عيِّنة وجودية أُخرى في مرتبتها اللونية، حتى وإن كانتا من نوع وصنف واحد.

وأما هذه الحقيقية العلمية المعاصرة فطرق إثباتها منها ما يعود إلى تفسير حقيقة اللون، فإذا ما التزمنا بأنَّ هذه الأشياء الحسيِّة المرئية لا لون لها، وأنها تكسب ألوانها من خلال عملية امتصاصها لبعض إشعاعات الطيف وعكسها للبعض الآخر؛ فيكتسب كل شيء لون الإشعاع

(١٦) في الأصل قد حُدِّدت قائمة الألوان بستة ألـوان أساسية، وهـي: (أحمـر، برتقالي، أصفر، أخضر، أزرق، بنفسجي)؛ ثم قام نيوتن بإضافة اللون السابع، وهو اللون النيلي بين الأزرق والبنفسجي. انظر: ويكيبيديا (الموسوعة الحرة).

الذي يعكسه[١٧]، فإنَّ مقدار الامتصاص والانعكاس مختلف ومتفاوت، وبالتالي فإنَّ الدرجة والمرتبة اللونية سوف تختلف من جسم لآخر؛ بعبارة أُخرى: إنَّ لون الأجسام هو لون الضوء الصادر من سطوحها؛ والذي يعتمد عادة على طيف الضوء الساقط وخصائص الانعكاس على سطوح الجسم؛ بالإضافة إلى التأثير المحتمل لزاوية الإضاءة وزاوية المشاهدة؛ ولا يعتمد إحساس المشاهد لِلَونِ الجسم على الطيف الضوئي الصادر من سطحه فحسب؛ بل يعتمد أيضاً على مجموعة كبيرة المهارات المكتسبة؛ بحيث يميل اللون إلى إحساسه بوجه ثابت نسبياً وليس دائمياً؛ لأنَّ الإحساس اللوني يتكيَّف مع طبيعة الإضاءة المحيطة؛ وهذا ما يُؤكِّد الاختلاف اللوني وتفاوته[١٨].

وأما إذا التزمنا بأنَّ اللونية ليست أمراً عارضاً تفرضه الحزم الضوئية التي تعكسها الأجسام فيتلوَّن بحسبها، وإنما هو حقيقة تصطبغ بها الأجسام، وأنَّ الحزم الضوئية مسؤولة عن الكشف عنها لا عن منح الصفة اللونية، فتكون اللونية من قبيل شيئية الأشياء تظهر بواسطة الضوء وتختفي، لا أنها توجد وتُعدم؛ إذا كان الأمر كذلك فأنَّ إثبات الاختلاف والتغاير اللوني بين الأشياء جميعاً يحتاج إلى عملية استقراء تورث الاطمئنان، من قبيل ما ثبت في اختلاف بصمات الأصابع وبصمات العين من شخص لآخر، حيث قامت اللجان العلمية المسؤولة عن ذلك بتجارب كثيرة جداً فتأكَّد لهم الاختلاف التام وعدم وقوع التطابق بين بصمتين لشخصين، حتى انتهوا إلى تعميم النتيجة على نحو الموجبة الكلية؛ والكلام هو الكلام في المقام، حيث قام المُختصّون بذلك بتجارب كثيرة فحصوا فيها ألوان الأشياء المُتشابهة لوناً ونوعاً وصنفاً، فلم يجدوا عينتين مُتطابقتين أبداً؛ وقد أجروا عمليات فحص أُخرى لبصمات تُقارب ذلك، كبصمة العين والأُذن والوجه والصوت والشفاه والرائحة والشكل والهيئة والمشي، فلم يجدوا عينتين مُتطابقتين في ذلك أبداً، وذلك من إعجازه سبحانه في الخلق؛

(١٧) تقدَّم ذلك في الفصل الأول، ضمن التعريف الاصطلاحي للون ومناقشته.

(١٨) انظر: ويكيبيديا (الموسوعة الحرة).

وقد شكّلت هذه الظاهرة المدهشة والمُثيرة للاستغراب لُغزاً كبيراً، لأنها حقيقة تكوينية تتنافى تماماً مع الاتفاق والصدفة التي لا ينفي تحققها أو وقوعها العلماء الطبيعيون التجريبيون[١٩]؛ وهذا ما حدا ببعضهم إلى إعطاء هذا التغاير المُدهش مسحة تفسيرية ميتافيزيقية، بعد عجزهم عن تفسيره، وذلك بنسبة هذا التغاير إلى وجود قوى خفية لها مدخلية في إدارة الكون؛ ممَّا يعني أنَّ العلوم التجريبية في تعاملها مع المدرك المحسوس فقط، قد استطاعت أن تتوصل إلى أنَّ في الكون غيباً قد لا يستطيع الإنسان أن يشقَّ حجبه، ولولا ذلك الغيب ما استمرت تلك العلوم في التطور والنماء، لأنَّ أكبر الاكتشافات العلمية قد نمت نتيجة للبحث الدؤوب عن هذا الغيب؛ كما تؤكد العلوم التجريبية أنَّ في الأحياء سرَّاً لا نعرف كنهه؛ ولذلك كلّه فإنَّ كل خطوة يخطوها البشر في سبيل الرقي العلمي، تُقرّبنا إلى ديننا الفطري، حتى ينتهي الأمر إلى الإقرار الجماعي والإجماعي بأنه الدين حقّ[٢٠].

هذا، وقد نُظمت ندوات علمية في إثبات الحقيقة العلمية المتعلِّقة بالبصمات اللونية، وإثبات تفاوتها وعدم تطابق نسختين أبداً، حتى في التوائم فضلاً عمن سواهم[٢١]؛ ففي جامعة الرباط بالسودان

(١٩) وقد كان تركيزهم على التوائم، حيث تزداد عندهم نسبة التشابه، فوجدوا كل توأمين غير متطابقين في الشكل والهيئة والصوت والبصمة، بل وفي الطموح والتفكير. انظر: منتدى العلوم العامة (موقع إنترنيت). وأيضاً: انظر: ويكيبيديا (الموسوعة الحرة).

(٢٠) انظر: النجار، الدكتور زغلول راغب محمد، مقالة: (من أسرار القرآن، موقف المفسرين من الآيات الكونية في القرآن الكريم -القسم الثاني، فقرة: «الرد على الادعاء بالتعارض بين معطيات العلم والدين»)، منشورة في موقع: (إسلاميات).

(٢١) نظم الاتحاد المهني العام لأساتذة الجامعات والمعاهد العليا السودانية بالتعاون معهد الدراسات المعرفية والإعجاز القرآني في جامعة امدرمان الإسلامية ندوة عن: « البصمة اللونية إعجاز رباني» في تأريخ: (٢٤، ٢٧/ ١٠/ ٢٠١٠م)، تحدَّث فيها كل من نائب رئيس جامعة الرباط الوطني البروفيسور عمر عبد العزيز موسى، ومدير جامعة امدرمان الإسلامية الدكتور حسن عباس حسن، ورئيس الاتحاد المهني لأساتذة الجامعات السودانية الدكتور عمر محمد توم، والدكتورة جيهان عيسى والدكتور عامر مجذوب؛ حيث أُثبت من

بمعهد الدراسات المعرفية والإعجاز القرآني تمَّ إثبات عدم تطابق لون الإنسان مع أيِّ إنسان آخر، فتكون البصمة اللونية مختلفة، كما هو حال بصمة الأصابع تماماً؛ وقد تقدمت الدكتورة جيهان عيسى بهذا البحث الذي أسمته بـ: (البصمة اللونية)؛ منطلقة من قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [سورة الروم: ٢٢]، فأُخذت هذه الفكرة من الآية، ثم طبقتها وفقاً للأسس العلمية؛ حيث اعتمدت دراستها على تطبيق ثلاث خطوات لإثبات معلومة اختلاف الألوان الواردة في الآية السابقة؛ وهذه الخطوات كالتالي:

أولاً: اعتماد النظر والمشاهدة، ليتم تحديد هل الألوان متطابقة أم لا؟.

ثانيا: اعتماد الصورة الرقمية عن طريق الحاسوب.

ثالثاً: استعمال جهاز كشف سرطان الجلد عن طريق تغير لون البشرة؛ فقد تم استعمال هذا الجهاز لقياس درجة الألوان في جلد الإنسان في عينة من التوائم المتشابهة؛ وقد كانت فرضية البحث تنطلق من كون اختلاف التوائم المتشابهة دليلاً على اختلاف بقية البشر في ألوانهم؛ وقد قامت الدكتورة جيهان عيسى مع الدكتور محمد توم بجمع واحد وأربعين توأماً من الجنسين لتطبيق التجربة؛ وانتهيا إلى حقيقة علمية قرآنية، وهي عدم وجود لونين متطابقين بين التوائم[٢٢].

الركن الثاني: الاختلاف اللوني في القرآن الكريم

وهو مسألة تعرُّض القرآن الكريم

خلال التجارب العلمية أنَّ الألوان مختلفة في كل البشر بما في ذلك التوأم المتشابهين حيث وجدت ألوانهم مختلفة أيضاً. انظر: الموقع الالكتروني لجامعة الرباط الوطنية السودانية. وقد نشرت جريدة الانتباهة السودانية في تأريخ: (٤/ ١٢/ ٢٠١٠م) مقالاً للكاتب علي الصادق البصير تحت عنوان: «البصمة اللونية.. وعبرة الهلاك!»، تحدث فيه عن هذا الانجاز الذي قدمته الباحثة الدكتورة جيهان عيسى والدكتور محمد توم، مُشيراً فيه إلى توصل هذه الدراسة إلى إضافة بصمة جديدة لسلسلة البصمات المعروفة، وهي البصمة اللونية.

(٢٢) انظر: الموقع الالكتروني لجامعة الرباط الوطنية السودانية.

لحقيقية علمية لم يسبقه فيه أحد؛ وقد تقدّم عرض جملة من النصوص القرآنية التي تُصرّح بوقوع الاختلاف اللوني في الإنسان والحيوان النبات والجماد، منها: قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ [سورة الروم: ٢٢]؛ وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ﴾[سورة فاطر: ٢٧ –٢٨]؛ وقوله تعالى: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ﴾[سورة النحل: ١٣]؛ وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[سورة النحل: ٦٩]؛ وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ [سورة الزمر: ٢١].

وأما معاني الاختلاف فتدور معاني بين ما يلي:

١. الأصناف والأنواع والأجناس.
٢. الأشكال والهيئات.
٣. الطعم.
٤. اللون نفسه.
٥. ما هو مشترك بين هذه الاحتمالات أو بين بعضٍ منها.

وأما الراجح منها فهما الوجه الرابع والخامس، ورغم أنَّ الوجه الخامس يمنحنا مساحة كبيرة للتحرّك في إثبات الاختلاف اللوني لعدم وجود مانعٍ منه، إلا أنَّ الوجه الرابع آكد في معناه، لأنه يقتصر على مورد الإعجاز اللوني؛ وسيأتي تفصيل المسألة في بحث الأدلة.

المبحث الخامس:

أدلة الإعجاز اللوني في القرآن الكريم

المستوى الأول من أدلة الإعجاز اللوني «الآيات اللونية»

ويُراد به جميع الآيات التي تعرَّضت للألوان نفسها، لا لاختلافها؛ سواء وردت بصورة صريحة أم بصورة غير صريحة؛ وسوف يقتصر البحث فيها على إبراز نكات هذا الاستعمال اللوني الموافق للنتاج أو الكشف العلمي التجريبي المتأخر عن نزول

القرآن الكريم؛ ممَّا يعني ثبوت الإعجاز العلمي من خلال مفردة اللون، فيكون الإعجاز إعجازاً علمياً لونياً.

ومن أدلة المستوى الأول كالتالي:

أولاً: اللون الأصفر، كما في قوله تعالى: ﴿...بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾[سورة البقرة: ٦٩]، حيث يُقال بأنَّ هذه الآية الكريمة تدل على كون اللون الأصفر يبعث على الفرح والسرور؛ وقد ثبُت ذلك علمياً، حيث يرى علماء البيولوجيا أنّ اللون الأصفر فيه خاصّية رفع روح الدعابة والسرور[٢٣]؛ وقيل بأنَّ للون الأصفر خاصية التجميع، حيث يُرجعه البعض إلى أصل ثلاثي (صفر)، والثلاثي من الأصل الثنائي (صف) بمعنى التجميع[٢٤]؛ فكون البقرة عواناً لا فارضاً ولا بكراً، وكونها ذلولاً لا شية فيها؛ غير واضح للعيان إلا بالتجربة، بخلاف لونها؛ فالصبغة اللونية هي الأبرز في ذلك كله، فتكون محوراً؛ وهو استنتاج مقبول فيما إذا ثبت لدينا الإرجاع الصرفي الآنف الذكر، وإلا فلا.

ثانياً: اللون الأخضر، كما في قوله تعالى: ﴿..وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ..﴾ [سورة الكهف: ٣١]؛ وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾[سورة الرحمن: ٧٦].

قيل بأنَّ اللون الأخضر من الأصل الثلاثي (خضر)، وهو من الأصل الثنائي (خض)، بمعنى اللين والرقة، وهذا وإن يبدو واضحاً في هاتين الآيتين اللتين ورد فيهما هذا اللون؛ حيث ورد الخضار في الثياب والرفرف؛ وهي الوسائد؛ والثياب الخضراء في الآية تشير إلى رقة ولين الثياب المصنوعة من السندس والإستبرق، كما أنه لون يدل على الأمن والطمأنينة، وباعثاً على الراحة والهدوء؛ وكل ذلك يُدلل على الإعجاز اللوني في القرآن الكريم؛ لأنَّ القرآن تحدث عن مزايا لون كُشف عنها مُؤخَّراً من خلال تحليل الألوان؛ حيث

(٢٣) انظر: إسماعيل، الدكتور محمد أحمد، أُستاذ مُتخصِّص في البيولوجيا الجزئية، في جامعة عين الشمس، القاهرة، مقالة: (خصائص الألـوان)، نـشرت المقالة في الموقع الإلكتروني للكاتب.

(٢٤) انظر: البيطار، الدكتور حسام هشام، مقالة: (معاني الألوان في القرآن الكريم)، الموسوعة الإسلامية.

وجدوا أنَّ اللون الأخضر غالباً ما يشير إلى الجمال والرقة واللين[٢٥].

نعم، قد يبدو ذلك واضحاً في إجمال الآيتين، إلا أنَّ إثبات الإعجاز اللوني في المقام يتوقَّف على أمرين؛ الأول: صحة عود لفظ: «أخضر» إلى ذلك الأصل الثنائي ليثبت معنى اللين والرقة؛ وهو أمر لم يتضح ثبوته؛ والثاني: إثبات عدم التفات المخاطبين في بيئة النزول إلى خواص اللون الأخضر الآنفة الذكر؛ فمع التفاتهم لذلك فإنَّ القرآن لم يكن قد كشف عن شيء غاب عنه السابقون عليه والمعاصرون لنزوله؛ وشرط الإعجاز هو تأخّر الكشف العلمي عن الإشارة القرآنية.

ثالثاً: اللون الأسود، كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾[سورة البقرة: ١٨٧]؛ وقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[سورة الزمر: ٦٠]؛ و﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[سورة النحل: ٥٨]؛ و﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[سورة فاطر: ٢٧]؛ وهنا أُدَّعي أيضاً بأنَّ اللون الأسود من أصل ثلاثي (سود)، والذي هو من أصل ثنائي (سو) بمعنى الضيق، وقد استُعمل هذا الأصل في القرآن الكريم ليدلَّ على اللون الأسود المعروف، كما في الآية الأُولى؛ وهذا السواد هو سواد الضوء، ومن الواضح بأنَّ سواد الليل فيه ضيق في مجال الرؤيا والحركة؛ وفي سواد الأشياء كما في الآية الرابعة تعبير دقيق عن الغرابيب السود، فهي تمتص جميع الألوان، وكأنّها تضيق عليها[٢٦]؛ وأما ما جاء في الآية الثانية فيدل على سواد الوجه بمعنى الخزي والغمّ والهمّ، والسواد فيه ليس تغيُّر اللون، فإنَّ لون الوجه قد يكون أبيض ولكنه مسوَّد، بمعنى أنه مُضيق على صاحبه من شدَّة الخزي والعار اللذين يلحقان به جرَّاء ما ارتكبه من معاصٍ[٢٧]؛ وأما ما جاء في الآية الثالثة فهو تعبير دقيق

(٢٥) انظر: مقالة: (معاني الألوان في القرآن الكريم)، مصدر سابق.

(٢٦) انظر: مقالة: (معاني الألوان في القرآن الكريم)، مصدر سابق.

(٢٧) انظر: المصدر السابق.

عن ضيق النفس بالأُنثى، بحسب الثقافة التي كانت سائدة آنذاك، وهي ثقافة ممتدة إلى يومنا هذا؛ والآية الكريمة تعكس لنا الوضع النفسي السيئ، من خلال إضفاء لون السواد الدال على الحزن والكآبة، ثم تُعمِّق حالة الازدراء من خلال حالة الحزن الشديدة المُشار إليها بقوله: «وَهُوَ كَظِيمٌ»، والكظيم هو الممتلئ غمًّا[٢٨].

ومحلّ الشاهد في المقام هو أصل الاستعمال لهذا اللون في مورد الشدَّة والضيق، حيث أثبتت الدراسات العلمية التجريبية أنَّ اللون الأسود يحجب الألوان، فهو عدم اللون، وعدم اللون يعني ضيق الحركة وانحصارها، بل انعدامها؛ وهكذا هو حال من شمله العذاب، وحال من بُشِّر بالأُنثى حيث يسوَّد وجهه ويحزن لذلك، فاستعمال السواد في هذا المورد (الآية الثانية) لا يعني تغيّر لون الرجل إلى السواد الفعلي، وإنما ما يُسبه السواد من ضيق وأسر وحزن؛ ولعل لبس السواد في المصائب تعبير مناسب عمَّا هو عليه صاحب المصاب من ضيق وحزن وعذابٍ وألم.

رابعاً: اللون الأزرق، كما في: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾[سورة طه: ١٠٢]؛ ورغم أنَّ اللون الأزرق جميل جداً؛ وهو من الألوان الباردة التي تساعد على التركيز؛ وقد تقدَّم أنَّ بعض الدراسات النفسية سجّلت أنَّ هذا اللون يمنح الهدوء والسكينة والاستقرار النفسي، كما أنه يُساعد على الإبداع، ويُساهم في تخفيف الحمى وسرعة نبضات القلب؛ كما يُساعد على تخفيض ضغط الدم، ويُنشِّط الغدة النخامية ويساعد على النوم بعمق ويقوي نخاع العظام[٢٩]، كما أنَّ النظر إلى السماء الزرقاء يُساعد على تهدئة النفس المضطربة وإشعارها بالأمن والطمأنينة؛ فإذا كان الأمر كذلك فلماذا يُشار به إلى الحزن

(٢٨) انظر: السيوطي والمحلّي، جلال الدين عبد الرحمن، وجلال الدين محمد بن أحمد، (تفسير الجلالين)، قدَّم له وراجعه الأُستاذ مروان سوار، نشر دار المعرفة، بيروت: ص٦٤٨ رقم: «١٧».

(٢٩) انظر: الكحيل، المهندس عبد الدائم، (روائع الإعجاز النفسي في القرآن الكريم)، نشر دار مهرات، ٢٠٠٦م، حمص، سوريا: ص١٣٦. ويُمكن مراجعة الكتاب في موقع الكاتب: (www. kaheel7. com).

والكآبة والشدّة والأذى الذي يُلاقيه الكفار، وكأنه تصوير لحشرهم على تلك الشاكلة المؤلمة والتعيسة؟.

والجواب هو أنَّ لون الزرقة في جلد الإنسان تحديداً قبيح المنظر، لأنه لون الكمدات والحروق بالنار، ولون الشؤم واللؤم في لغة العرب، حتى أنهم كانوا يتهاجون به[٣٠]، ومن هنا ذهب الزمخشري إلى أنَّ المراد في الآية الكريمة هو زرقة العيون المُنفِّرة تمثيلاً لشدة ما هم فيه من الأهوال والحزن[٣١]؛ ولذلك فإنَّ الاستفادة القرآنية لا تتقاطع مع ما تقدم من حسن أصل اللون الأزرق؛ فإنّ الإشارة القرآنية بهذا اللون إلى معنى آخر إنّما كان بضميمة المحشورين وهم الكفار؛ كما عرفت؛ فإنّ الهيئة الطبيعية للأجساد البشرية أن تكون بعيدة جداً عن اللون الأزرق، لأنه فيها يجعلها شاذة ومنبوذة، والشاذ مُنفِّر للنفوس غير مرغوب به، ممّا يعني أنّ الكفار سوف يُحشرون على هيئة كريهة تبعث على النُفرة والاشمئزاز.

وقد قيل بأنَّ اللون الأزرق من الأصل الثلاثي (زرق) وهو من الأصل الثنائي (زر)، بمعنى القلَّة والضيق؛ فيكون استخدام هذا الأصل في معنى القلة والضيق واضحاً، أي: إنهم يحشرون في قلَّة وضيق؛ وقد ثبت علمياً بأنَّ لون الجلد يميل إلى الزرقة عند نقص الأوكسجين؛ فهي حالة اختناق وضيق يُعانيها الجسم[٣٢]؛ وقيل بأنَّ الزورق (القارب الصغير) إنما سمِّي زورق لصغره وضيقه، وهو اسم مأخوذ من مادة: «زرق[٣٣]»؛ وعليه فالكشف العلمي عن خصائص هذا اللون بما ينسجم مع واقع حال المجرمين عند حشرهم يُثبت لنا إعجازاً لونياً؛ فهذه الحقيقة اللونية لم يُكشف عنها تحليلاً لا مجرد معنى إلا مؤخَّراً في عملية تحليل الألوان؛ وقد اتضح عدم ثبوت

(٣٠) انظر: الجاحظ، أبو عثمان عمرو، (الحيوان) تحقيق عبد السلام محمد هارون، ١٩٤٥م، القاهرة: ج٣ ص١٧٥ و: أيضاً: ج٥ ص٣٣٠-٣٣١.

(٣١) انظر: الكشاف، مصدر سابق: ج٢ ص٥٥٣.

(٣٢) انظر: الموسوعة الإسلامية مقالة: (معاني الألوان في القرآن الكريم)، مصدر سابق.

(٣٣) انظر: لسان العرب، مصدر سابق: ج١٠ ص١٤٠ مادة: «زرق».

صحة هذه المرجعية الصرفية في مفردات الألوان، إلا أنَّ ما يُسبّبه فقدان الهواء من ضيق وتلوّن بالزرقة، وكون القرآن يُوظِّف ذلك في الكشف عن حال المجرمين عند المحشر، يُساعد على تقريب وجه الإعجاز اللوني بذلك، لاسيَّما مع تحقّق شرط الكشف عن ذلك التوظيف الدقيق بواسطة التحليل العلمي؛ وقد اتضح بأنَّ التحليل العلمي للخصائص اللونية غير المعرفة الصورية بها.

المستوى الثاني من أدلة الإعجاز اللوني

«آيات الاختلاف اللوني»

الآية الأُولى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾[٣٤] [سورة النحل: ١٣].

المفاد الخاص للآية: إنَّ الصفة اللونية في الخلق هي الملمح الأبرز، وهي الصفة الجمالية في الخلق أيضاً، فكل مخلوق أخذ لونه الطبيعي وأنس الناس بذلك، فأرادت الآية الكريمة لفت النظر إلى مجموع الأُمور المُسخَّرة من خلال هذه الصفة اللونية المأنوس بها، فالحديث عن السماء -مثلاً- يقدح في الذهن لون الزرقة مباشرة، بمعنى أننا نستنجد بالزرقة السماوية لإحضار صورة السماء، فهنالك نوع اندكاك بين السماء وزرقتها؛ وهكذا الحال بالنسبة للنبات والحيوان، وغير ذلك من الموجودات الأرضية، دون إغفال الملامح الأُخرى من الجنسية والنوعية والصنفية، والهيئة والشكل؛ إلا أنَّ الصفة اللونية أسبق حضوراً؛ أو قُل لأنَّ الأشياء غالباً ما تختلف باللون[٣٥]؛ وبموارد التخالف يشتد التفاوت والحضور؛ فلو كانت الأشياء بلون واحد لا غير لكان المنظور شيئاً واحداً؛ فلو كانت الموجودات الأرضية منظوراً فيها الجهة المادية لا غير لكانت شيئاً واحداً وغاب التفاوت، وغاب الإبداع وداعي التفكّر والتذكير؛ لذلك استدعى التفاوت ولحاظ قوة الإبداع

(٣٤) تنبيه: تعرَّضنا إلى آيات المستوى الثاني بحسب تسلسل الآيات في النظم القرآني، لا بحسب الأهمية وقوة الدلالة.

(٣٥) الكاشاني، المولى محسن الفيض، (التفسير الصافي)، تحقيق الشيخ حسين الأعلمي، نشر مكتبة الصدر، ١٤١٦ هـ، إيران، الطبعة الثانية: ج٣ ص١٢٨.

وعمق التفكّر والتذكير شيئاً يُحقق التفاوت وشدة الحضور في الذهن، فكان اللون هو الأولى بذلك؛ فاللون هو اللغة الأُولى في الطبيعة، وأنَّه علامة فارقة كبيرة للتمييز بين الأشياء، وإنه يمنح الدماغ فرصة كبيرة للحفظ والانتقال، وكلما كانت الألوان واضحة وناصعة كان الأثر التذكيري أكبر؛ وإذا لم يُلتفت لذلك من قِبل البعض فذلك راجع لشدَّة حضوره، فهو من قبيل الضوء الكاشف عن الموجودات، حيث تحضر عادة صور جميع الموجودات في ذهن الناظر ويغيب الضوء، مع أنَّه أشدّ ظهوراً من المُنكشف به.

الآية الثانية: ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[سورة النحل: ٦٩].

المفاد الخاص للآية: في الآية دلالة على اختلاف الألوان الطبيعية للعسل الذي يخرج من بطون النحل، فألوانه الطبيعية غالباً ما تدور بين الأصفر والأبيض والأحمر؛ ومنه ما يميل إلى السواد مع أنها تأكل الحامض والمرَّ فيُحيله الله تعالى عسلاً حلواً لذيذاً[٣٦]، فلون العسل يختلف بحسب لون الثمار والأزهار التي يرتشف النحل رحيقها، (فالعسل الناتج من رحيق أزهار القطن يكون قاتم اللون بخلاف عسل أزهار البرسيم فهو فاتح اللون)[٣٧].

إذن فهنالك اختلاف في طبيعة ألوان العسل، بين غامق وفاتح من الألوان المعروفة عنه من أبيض وأصفر وأحمر وأسود؛ فهو من جهة يتمايز لونياً من حيث اختلاف أصل الألوان، ومن جهة يتمايز من مراتبية هذه الألوان من حيث الشدَّة والضعف، ممَّا يعني أنَّ عينة من العسل مرتبة لونية خاصة بها؛ وهذا ما له صلة بالركن الأول من إثبات الإعجاز اللوني، وأما الركن الثاني فهو أنَّ القرآن الكريم قد تعرَّض لهذه الحقيقة قبل أوان الكشف عنه بقرون طويلة.

الآية الثالثة: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ

(٣٦) انظر: الطوسي، شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن، (التبيان في تفسير القرآن)، تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي، نشر مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٩ هـ، الطبعة الأولى: ج٦ ص٤٠٤.

(٣٧) القرآن وإعجازه العلمي، مصدر سابق: ص١٥٣.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡ .. ﴾ [سورة الروم: ٢٢].

المفاد الخاص للآية: إنَّ هذه الآية الكريمة لهي من أوضح الآيات المُساقة في اختلاف الألوان؛ كما أنها مطلقة من حيثية الاختلاف اللوني، فتكون واضحة الدلالة في كون كل عينة بشرية تختلف في لونها الطبيعي عمَّن سواها، وبذلك يثبت الركن الثاني من أركان الإعجاز اللوني، وبمعية الركن الأول الثابت علمياً يثبت الإعجاز اللوني في القرآن الكريم؛ وقد ذهب جملة من الأعلام إلى إرادة الألوان الطبيعية في الاختلاف اللوني الوارد في الآية؛ منهم الطبري والقرطبي والطبأطبائي[٣٨].

الآية الرابعة: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴾[سورة فاطر: ٢٧].

المفاد الخاص للآية: وهنا يُوجد تصريح ثنائي باختلاف الألوان، الأول في قوله: ﴿ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَا ﴾ يُمكن توجيهه بنفس الألوان الطبيعية المُتعارفة: (الأبيض والأحمر والأخضر والأصفر...)، والثاني في قوله: ﴿ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا ﴾، يُمكن توجيهه بذلك كما يُمكن توجيهه بمراتبية الألوان الطبيعية؛ فبعدما بيَّنت الآية أنَّ لوني الجبال بيض وحمر ألفتت النظر إلى اختلاف درجات هذين اللونين بقوله: ﴿ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَا ﴾، وممَّا يُساعد على ذلك قرينتان، لفظية سياقية داخلية من نفس النصّ، وخارجية بحسب المسح الجيولوجي؛ أما السياقية المتصلة فهي قوله: ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴾، التي تُساعد على حصر ألوان الجبال بالأبيض والأحمر، وما عدا ذلك فإنه لا يخرج عن الأسود القاتم[٣٩]، فقوله: (غَرَابِيبُ)،

(٣٨) انظر: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، (جامع البيان في تأويل القرآن «تفسير الطبري»)، نشر دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م، بيروت: ج٢١ ص٣٩. وأيضاً: القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، (تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»)، نشر مؤسسة التأريخ العربي، ١٤٠٥ هـ، بيروت: ج١٤ ص١٨. وأيضاً: الطباطبائي، السيد العلامة محمد حسين، (الميزان في تفسير القرآن)، نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم المقدسة: ج١٦ ص١٦٧.

(٣٩) انظر: تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل

يوضح شدة درجة السواد؛ وقد كانت العرب تقول للشديد السواد الذي لونه كلون الغراب: (أسود غربيب)[٤٠]، وأما القرينة الخارجية فتكمن في كون الألوان المتعارفة لا تقل عن سبعة، كحدٍّ أدنى، وهي ألوان الطيف المرئي(ألوان قوس قُزح)؛ ومن الواضح بأنَّ أقل الجمع في علم الرياضيات ثلاثة[٤١]، فيكون قوله: ﴿مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا﴾، بعد ذكر الأبيض والأحمر مباشرة وصفاً لمعنى آخر خارج عن الحدِّ الأدنى للعدد الزوجي؛ وليس أمامنا سوى المراتبية؛ فيترجَّح القول بذلك؛ لأنَّ القرآن الكريم أول من ألفت النظر إلى هذه المراتبية غير المنحصرة؛ وهذا هو مناط الإعجاز العلمي القرآني، وحيث إنَّ هذه الحقيقة تتعلَّق بالألوان فإنها تدخل ضمن الإعجاز اللوني في القرآن الكريم.

الآية الخامسة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٞ﴾ [سورة فاطر: ٢٨].

المفاد الخاص للآية: تتحدث الآية الكريمة عن اختلاف الألوان في مخلوقاته تعالى، وهذا الاختلاف إما أن يكون مطلقاً مأخوذاً على نحو الموجبة الكلية فيثبت الركن الثاني من أركان الإعجاز اللوني؛ وبمعية الركن الأول الخاص بالاكتشاف العلمي للاختلاف اللوني بين الموجودات الطبيعية، والذي أسميناه بالبصمة اللونية؛ وأما إذا قلنا بأنَّ هذا الاختلاف جزئي ـ كما هو ظاهر الآية الكريمة ـ بقرينة قوله: (وَمِنَ) الدالة على التبعيض فإنَّ الركن الثاني سوف ينتفي، كما هو واضح؛ لأنَّ الاختلاف الجزئي معلوم وظاهر للعيان قبل عصر النصّ، بل هو ثابت منذ بدئ الخليقة؛ فلم يبقَ أمامنا لإثبات الموجبة الكلية سوى القول بيانية: (مِنَ)، وهو ليس ببعيد.

الآية السادسة: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي

القرآن)، مصدر سابق: ج١٠ ص٤٠٩.

(٤٠) انظر: تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، مصدر سابق: ج١٤ ص٣٤٣.

(٤١) وأما بالنسبة لأقل الجمع المنطقي فاثنان، والكلام في الجمع في علم الرياضيات لا المنطقي الخاص.

﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[سورة الزمر: ٢١].

المفاد الخاص للآية: إنَّ الآية الكريمة تُحدد لنا أنَّ هنالك زرعاً مختلف الألوان، وقد أطلقت في ذلك؛ وهذا الاختلاف وإن كان يُحتمل فيه معنى الاختلاف الأجناسي لا اللوني الطبيعي، إلا أنَّ الراجح هو إرادة الألوان الطبيعية، والشاهد على ذلك هو قوله: ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾، أي: تلك الأجناس النباتية المختلفة الألوان؛ من أخضر وأحمر وأبيض وغير ذلك من الألوان؛ ستذبل فيما بعد وتموت وتتحوَّل جميعاً إلى صفراء لا حياة فيها، ثم تكون حطاماً[٤٢]؛ وحيث إنَّ التعبير بالاختلاف اللوني مطلق فإنه يُمكن إثبات الركن الثاني الإعجاز اللوني، وبمعية الركن الأول الخاص بالاكتشاف العلمي للاختلاف اللوني سيثبت لدينا الإعجاز اللوني في القرآن الكريم.

فينتج من مجموع الآيات الست إثبات الإعجاز العلمي اللوني في القرآن الكريم؛ سواء بوجودها المنفرد أم بوجودها المجموعي؛ والوجود المجموعي آكد في إثبات المُدَّعى.

تصورات أولية لمستو ثالث للإعجاز اللوني

وهو ما يتعلَّق بروعة الألوان وتناسقها، والتي تعود إلى مسألة عظمة الله تعالى في خلقه وقدرته الإبداعية المطلقة؛ وهذا المستوى الثالث المُدَّعى للإعجاز اللوني قد دارت حوله معظم الدراسات التي تناولت الإعجاز اللوني في القرآن؛ دون أن تُفرِّق بين ما يتعلَّق بالإعجاز اللوني وعظمة الخلقة؛ حتى أنها عندما تعرَّضت للألوان التي تناولها القرآن لم تخرج عن المستوى الأول من الإعجاز!.

المبحث السادس:
الآثار التفسيرية المترتبة على الإعجاز اللوني في القرآن

تأكيد الحاجة إلى التفسير العلمي والإعجاز العلمي.

(٤٢) انظر: تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن)، مصدر سابق: ج٢٣ ص٢٤٧. وأيضاً: النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي المصري النحوي، (معاني القرآن)، تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني، نشر أم القرى، ١٤٠٩هـ، السعودية، الطبعة الأولى: ج٦ ص١٦٥. وأيضاً: انظر: الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، (فتح القدير «الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير»). نشر عالم الكتب، بيروت: ج٤ ص٣٩.

إنَّ الوقوف على النتائج العميقة في معانيها الكثيرة في عددها للإعجاز العلمي داعٍ حقيقي لمواصلة البحوث فيه حصداً لنتائج جديدة تتعلَّق بالجانب المعرفي للقرآن والإنسان من جهة، وباختيار الأفضل والأوثق علماً وعملاً من جهة ثانية.

إعادة النظر في النتائج التفسيرية السالفة.

ولا نعني بذلك مجمل النتائج العلمية السابقة عليه وما تعلَّق منها بالإعجاز العلمي، وإنما نعني الفهم السابق للنصوص القرآنية التي ورد فيها ذكر الألوان واختلافه؛ فجميع المصنَّفات التفسيرية السابقة على الإعجاز اللوني في القرآن مشمولة بهذه الدعوة العلمية الموضوعية؛ ولا ريب بأنَّ هذه الدعوة لا تقتصر على نتاج تفسيري دون آخر؛ فسواء كان النتاج التفسيري تجزيئياً (ترتيبياً)، أم موضوعياً (توحيدياً)، فالدعوة قائمة؛ وعليه فالمعطى التفسيري للآيات اللونية سوف يتأثر بذلك؛ إلا أنَّ حجم التأثير متفاوت بحسب الأوليات التي يتوفَّر عليها المفسِّر، وموقفه من نفس التفسير العلمي والإعجاز العلمي، ومقدار ما قَبِلَ به من الإعجاز اللوني؛ كما أنَّ مقدار التأثير يتفاوت أيضاً بحسب نسب الاطلاع المسبق على النتائج العلمية في التفسير.

بيان الوجوه الخفية للنصّ القرآني

ممَّا يُساعد عليه النتاج العلمي التجريبي، ومنه المُعطى العلمي للإعجاز اللوني، هو أنه سوف يُوقف المُفسِّر على كوامن جديدة للنصّ القرآني، وخير شاهد على ذلك ما تقدَّم في بيان الآيات اللونية في هذه المقالة.

إعطاء مساحات جديدة للبيانات القرآنية

إنَّ الإعجاز اللوني يُقدِّم لنا مساحات جديدة للبيانات القرآنية، أو قل ـ على أقل التقادير ـ بأنه سوف يُقدِّم لنا وجهاً جديداً ورؤية جديدة للنصّ اللوني المقروء؛ وهذه الرؤية الجديدة لا نعدمها في جميع المفردات العلمية الخاصَّة بالإعجاز العلمي.

الآثار المعرفية والعقدية المترتبة على الإعجاز اللوني في القرآن

الآثار المعرفية العامة (البعد التنظيري).

إنَّ أيِّ مساحة بيانية جديدة للنصّ القرآني سوف تنعكس على النصّ

ومتعلقاته، فإذا ما التزمنا بأنَّ الإعجاز العلمي، ومنه الإعجاز اللوني، قد قدَّم مساحات بيانية جديدة للنصّ القرآني، فإنَّ الامتدادات المعرفية الجديدة سوف تنعكس بطبيعة الحال على كلِّ ما له صلة بالجانب المعرفي القرآني؛ والجوانب المعرفية العامة للقرآن الكريم تتعلَّق بكبريات المنظومة الإسلامية (برؤوس أقلامها الثلاثة: العقيدة، والشريعة، والأخلاق)؛ فالبصمة اللونية في القرآن الكريم بيان معرفي جديد يفرض نفسه على القراءات الجديدة للنصّوص المُتعلِّقه به، كما يفرض نفسه على النتائج القبلية المُستوحاة من النصّ سلفاً بُغية مراجعتها في ضوء المُعطى الجديد للإعجاز اللوني؛ فالاختلاف اللوني مراتبياً، واختلاف خصائص الألوان المنعكس في بناءات النصّ القرآني يُحرِّكانا نحو قراءة دقِّية للنصّ القرآني من جهة، كما يُحرِّكانا باتجاه إملاء المساحات الفارغة، والتي خلَّفتها القراءات السالفة، التي لم تكن بيِّنة من قبل؛ وهذا ما نُسمِّيه بالأثر المعرفي العام.

الآثار المعرفية الخاصة (البعد التطبيقي)

المراد من الآثار المعرفية الخاصة ما يتعلَّق بالجوانب التطبيقية للنصّ، ولا ريب بأنَّ الجوانب التطبيقية هي المنظور الفعلي للنصّ، بالرغم من أنها تمثل حالة تبعية للمعطى التنظيري، ولكنها تبعية غائية وليست ذيلية.

الآثار العقدية.

إنَّ أهم منجز يُقدّمه الإعجاز العلمي هو التفكّر في خلق الله تعالى وقدرته المطلقة، فهو مُنجز تعبوي وتوعوي، يُعبِّئُ مخاطبيه باتجاه استقراء الآيات الكونية، ويُعمِّق من وعيهم باتجاه مسؤوليتهم تجاه بارئهم جلَّت قدرته؛ وهذا ما يُحاول الإعجاز اللوني أن يُسهم فيه من خلال مُنجزه العلمي؛ ومن الواضح بأنَّ البُعد العقائدي هو الركن الأساسي في المنظومة الإسلامية، وبالتالي فإنَّ توطيده وتعميقه مهمَّة أساسية، فإذا ما وجهتنا شبهات جديدة فينبغي دفعها وفق المعطيات العصرية؛ وبما أنَّ أغلب الشبهات المعاصرة هي نتاج المنجز العلمي التجريبي، أو قل هي نتاج عصر العلوم التجريبية، فإنه يتعيَّن علينا درء الشبهة بلسان هذا العلم نفسه، وهذا ما يدعم الأثر العقدي للتفسير العلمي والإعجاز

العلمي في القرآن الكريم.

المبحث السابع:

الآثار التربوية والنفسية المترتبة على الإعجاز اللوني في القرآن

الآثار التربوية (الأخلاقية) للإعجاز اللوني.

أولاً: الأثر التربوي المُعالج لشعور منحرف وعُرف خاطئ كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [سورة النحل: ٥٨]، ففي الآية الكريمة تعبير دقيق عن ضيق النفس بالأُنثى، بحسب الثقافة الجاهلية الممتدة إلى يومنا هذا، وهنا تتحرك الآية الكريمة باتجاه نقد هذا الشعور الزائف والعرف الخاطئ، وأنَّ أصحابه هو ضعاف النفوس ممَّن لا إيمان لهم، وأنَّ مثلهم مثل السوء في أُمَّة الإنسان.

ثانياً: الأثر التربوي في عدم ديمومة الحال كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [سورة الزمر: ٢١]، حيث تُبيِّن لنا الآية وجه التشبه بين حال النبات وحال الحياة الدنيا عموماً وحال الإنسان خصوصاً، من خلال تقديمها تصويراً دقيقاً لعملية الاضطراب والتحوّل التي يُواجهها النبات، والمُعبَّر عنها بالتهيّج؛ حتى تصل إلى مرحلة الذبول، المُعبَّر عنها بالاصفرار؛ ثم تصل إلى مرحلة الرفات المُعبَّر عنها بالحطام؛ وفي ذلك أثر تربوي وأخلاقي كبير، حيث لا يُوجد مبرر عقلائي للاغترار بالدنيا، فمصيرها مصير النبات الذي نشاهد دورة حياته القصيرة مراراً وتكراراً؛ وبواسطة اللون القرآني تتشكَّل لنا صورتا زوال النبات وزوال الحياة، وعدم ديمومتها.

الآثار النفسية للإعجاز اللوني

أولاً: الأثر النفسي الترغيبي؛ كما في قوله تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴾[سورة الرحمن: ٧٦]، حيث النفاذ إلى النفس من خلال اللون الأخضر المُحبَّب لها؛ فهو لون الحياة والرقة والجمال.

ثانياً: الأثر النفسي الترهيبي؛ كما في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ

﴿ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [سورة طه: ١٠٢]؛ حيث يُشار باللون الأزرق إلى الحزن والكآبة والشدّة والأذى الذي يُلاقيه الكفار، فهو تصوير لحشرهم على هذه الشاكلة المؤلمة والتعيسة.

الخاتمة والنتائج

إنَّ أهمّ النتائج وبصورة منظمة وفقاً لترتّب الفصول، وهي كالتالي:

١. إنَّ هنالك تصويرين للون، الأول يرى بأنه نسبة الطيف المرئي المنعكس في المادة، فالمادة عندما تسقط عليها حزمة ضوئية تقوم بعمليّة امتصاصها لبعض الأطياف والأشعة الضوئية، ثم تعكس ما بقي من الأشعة؛ فاللونية أمر انعكاسي لا صلة له بواقعية الأشياء؛ إلا أنَّنا اعتبرناه أمراً مخالفاً للوجدان، فالوجوه السمراء في أفريقيا تبقى كذلك ولو عاشت في القطب الشمالي، لوجود لون خاص بها؛ ولكنَّ هذا لا يعني انتفاء الحقيقة العلمية بقدر ما هو توجيه لها.

٢. إنَّ الضوء وسطٌ مُظهر للون وليس مُوجِداً له، فدور الحزم الساقطة يكمن في الإظهار والتبيين لا في منح أصل الألوان، وإنَّ التمايز اللوني بين الأشياء المختلفة الساقط عليها نفس الحزم الضوئية كاشف إنِّي عن لونية الأشياء قبيل سقوط الحزم الضوئية عليها.

٣. إنَّ لاعتماد النظريات العلمية التجريبية في التفسير ضوابط مهمّة جداً، أهمّها أن لا يفسر القرآن إلا بالقطعيات الثابتة من العلم التجريبي، لا بالفروض والنظريات التي لا تزال موضع فحص وتمحيص، فلا مكان للحدسيات والظنيات المعرَّضة للإبطال في أيِّ وقت.

٤. الإعجاز اللوني في القرآن هو إثبات حقيقية قرآنية تتعلَّق بالألوان تحديداً، كشف عنها العلم مُؤخَّراً، ولم تسبق الإشارة إليها من غيره قبل نزول القرآن الكريم؛ ولهذه الحقيقية القرآنية عدة وجوه، وهي: الأول: الإعجاز اللوني على مستوى اختلاف الألوان؛ والثاني: الإعجاز اللوني على مستوى المراتب؛ والثالث: الإعجاز اللوني في أثر اللون.

٥. إنَّ للإعجاز اللوني في القرآن ركنين

أساسيين، الأول: إنَّ الموجودات المادية المرئية تتمايز فيما بينها في أصل اللون أو في المرتبة اللونية، فلا توجد عينتان متطابقتان في المرتبة اللونية، وإن كانتا تلتقيان في أصل اللون مفهوماً، والثاني: إثبات كون القرآن الكريم قد تعرَّض لمسألة الاختلاف اللوني؛ والاختلاف اللوني قرآنياً يُعتبر حقيقية علمية معاصرة؛ حيث أُثبت تفاوت وعدم تطابق نسختين أبداً، حتى في التوائم فضلاً عمن سواهم.

٦. للاختلاف اللوني القرآني عدة وجوه، وهي: الأول: الاختلاف في الأصناف والأنواع والأجناس. والثاني: الاختلاف في الأشكال والهيئات. والثالث: الاختلاف في الطعم. والرابع: الاختلاف في اللون نفسه. والخامس: الاختلاف مشترك بين هذه الاحتمالات أو بين بعض منها؛ والقسم الرابع هو القدر المُتيقَّن من جميع وجود الاختلاف، وبه يثبت الإعجاز اللوني.

٧. أدلة الإعجاز اللوني على مستويات ثلاث، الأول يتعلَّق بالآيات اللونية، وهو مقبول إلى حدٍّ ما؛ والثاني يتعلَّق بالاختلاف اللوني، وهو عمدة الأدلة؛ والثالث يتعلَّق بعظمة الخلقة من خلال تناسق الألوان، وهو أجنبي عن محلِّ الكلام.

٨. للإعجاز اللوني في القرآن الكريم آثار تفسيرية ومعرفية عقائدية وتربوية نفسية؛ ففي التفسيرية تأكدت الحاجة إلى التفسير العلمي والإعجاز العلمي، وأهمية إعادة النظر في النتائج التفسيرية السالفة، ومدخلية العلوم التجريبية في بيان الوجوه الخفية للنصّ القرآني، وإعطاء الإعجاز العلمي مساحات جديدة للبيانات القرآنية؛ وفي المعرفية العقائدية لُوحظ وجود بعد تنظيري ينطلق من كون القرآن أهم مصدر معرفي في المنظومة الإسلامية، وآخر تطبيقي غائي، وبالرغم من كون البعد التطبيقي تبعيًّا للمعطى التنظيري، إلا أنَّ تبعيته غائية وليست ذيلية؛ وأما في التربوية النفسية فهنالك آثار جاءت لتعالج شعوراً منحرفاً وعُرفاً خاطئاً،

وأُخرى بيَّنت الأثر التربوي في عدم ديمومة الحـال؛ كما أنَّ هنالك أثـراً نفسياً ترغيبياً، وآخر ترهيبياً.
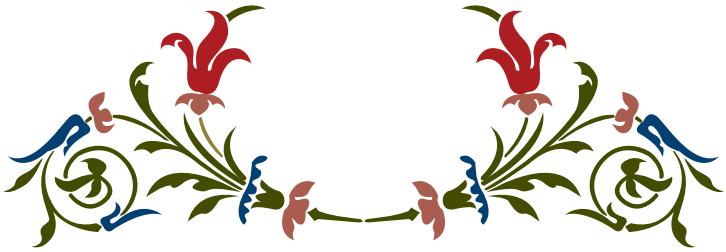
وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين وصلى الله على سيِّدنا وشفيعنا محمد وآله الطيبين الطاهرين وصحابته الأخيار المنتجبين.